ملحق (٢)
الإنسان الكامل

عداوة الشيطان لآدم وبنيه

ما مهمة الإنسان فى هذه الأرض؟ وما منزلته بين الخلائق التى خلقها الله عز وجل فى هذا الوجود؟ يقول الله تعالى فى سورة الإسراء: ﴿ولقد كرَّمْنا بنى آدَمَ وحَمَلناهُم فى البرِّ والبَحْر، ورزقْناهُم من الطَّيباتِ وفضَّلْناهم على كَثيرٍ ممنَّ خلقْنَا تفضيلا﴾[1]. وفى سور كثيرة من القرآن الكريم ذكر، الله عز، وجل أنَّه حين خلق الإنسان الأول - وهو آدم أبو البشر - أسكنه الجنة، وأمر الملائكة أن يسجدوا له فسجدوا، إلا إبليس فإنه أبى واستكبر وقال: ﴿أنا خيرٌ منه خَلقْتنى من نارٍ وخَلقْتَه من طين﴾[2]؛ فكان جزاؤه أن طرده الله من الجنة،

---

(١) سورة الإسراء الآية ٧٠.

(٢) سورة صٓ الآية ٧٦.

وتوعده بالعقاب الشديد، فخرج منها وهو يضمر العداوة لآدم، وآلَى على نفسه أن يفسد عليه وعلى بنيه حياتهم، وأن يُغْوِيَهم ويستَهوِيَهُم بكل أساليب الخداع والمكر، حتى ينحرف بهم عن طريق الخير إلى طريق الشر، ويَعْدِل بهم عن أسباب السعادة إلى أسباب الشقاء؛ وتمنى على الله أن يؤخره إلى يوم القيامة، حتى يؤدى هذه المهمة التى رصدَ حياته لها، وعاهد نفسه عليها. فأجابه الله، عز وجل، إلى ما تمنى، وقال: ﴿اذهَبْ فَمَنْ تَبِعَك مِنْهُمْ فإنَّ جَهَنَّم جَزاؤُكم جَزاءً مَوْفُورًا * واسْتَفْزِز مَن اسْتَطعْت مِنهُم بصوْتِك واجْلِبْ عَلَيْهِمْ بخَيْلِكَ ورَجِلِك وَشَارِكْهُم فى الأمْوال والأوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطانُ إلاَّ غُرُورًا * إنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِم سُلْطان. وكفَى بربك وكيلا﴾[1].

وهكذا بلغ الشيطان أمنيته فى البقاء، وأخذ يعمل فى الكيد لآدم حتى استطاع أن يخرجه من الجنة كما خرج هو منها، وهبط آدم والشيطان إلى الأرض، وكل منهما يضمر العداوة لصاحبه.

الإنسان خليفة الله فى الأرض

ماذا كانت مهمة الإنسان فى الأرض.. ؟ يقول الله تعالى:

(١) سورة الإسراء الآيات ٦٣ - ٦٥.

﴿وإذْ قال ربُّك للمَلائكة إنِّى جاعلٌ فى الأرضِ خليفةً قالوا: أتجعل فيها مَن يُفسِدُ فيها ويَسْفِك الدِّماء، ونحن نُسَبِّحُ بحمْدِك ونقدِّسُ لك قال إنِّى أعْلمُ ما لا تعْلَمون﴾[1].

كانت مهمة الإنسان إذن أن يكون خليفة الله فى الأرض ليقيم فيها الحق والعدل، ويَعْمُرها بالخير والسلام، وكانت مهمة الشيطان أن يصرفه ما استطاع عن بلوغ هذه الغاية. ومنذ ذلك العهد البعيد والصِّراع بين الإنسان والشيطان قائم فى الأرض، لا يخلو منه مكان ولا زمان. وهى معركة الخير والشر، التى أراد لها أن تظل دائرة حتى تقوم الساعة.

عناصر التكوين فى الإنسان

قد يقول قائل: ولماذا أراد الله لهذه المعركة أن تدوم فى الأرض، ما دام سبحانه يريد أن يعمرها بالخير والسلام؟ ولماذا سلط الشيطان على الإنسان وقد اختاره ليكون خليفته فى إقامة الحق والعدل؟ ولماذا لم يذلل له الطريق ويحول بين الشيطان وبينه، حتى يتسنى له أن يصل إلى الغاية التى أرادها له؟ وإذا كان الشيطان قد سُلِّح بكل قوى الإغواء ليصرف

---

(١) سورة البقرة الآية ٣٠.

الإنسان عن غايته، فهل سُلِّح الإنسان بما يقاوم هذه القوى حتى يحقق الغاية من وجوده؟

هذه أسئلة قد تدور فى الرءوس وتجرى فى الخواطر، وقد يدور غيرها وغيرها حول هذه المشكلة. ولكى نستطيع الجواب عنها ينبغى أن نقف قليلا حتى تنظر فى طبيعة الإنسان وفطرته التى فطره الله عليها.

يقول الله تعالى: ﴿الذِى أحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُ وَبَدأ خلْقَ الإنْسانِ مَنْ طِين * ثُمَّ جَعَل نسْلَهُ مِنْ سُلالةٍ مِنْ مَاءٍ مَهين * ثُم سَوَّاهُ ونفخَ فِيهِ من رُوحه وجعل لكم السمعَ والأبصارَ والأفئدةَ قَليلاً مَا تَشْكرون﴾[1]

ويقول سبحانه: ﴿وعلَّمَ آدَمَ الأسْمَاء كلَّها ثمَّ عَرَضَهُمْ علَى المَلاَئِكةِ فَقال: أنبئُونِى بأسْمَاء هؤلاء إن كنْتُمْ صَادِقِين * قَالُوا سُبْحانك، لَا عِلم لنَا إلا مَا علَّمْتَنَا إنَّك أنتَ العليمُ الحكيمُ * قَالَ يا آدمُ انبِئْهُمْ باسْمائِهِمْ فَلمَّا أنْبأهُمْ بأسْمَائهمْ قال ألَمْ أقُلْ لكمْ إنِّى أعْلمُ غيْبَ السَّمٰوات والأرْض، وأعْلمُ ما تُبدُون وما كُنتم تكْتُمُون﴾[2]؟

---

(١) سورة السجدة الآيات ٧ - ٩.

(٢) سورة البقرة الآيات ٣١ - ٣٣.

ومضمون هذا أن الإنسان خُلق من عنصرين: عنصر أرضيّ، وهو عنصر الطين الذى يشترك فيه مع سائر الخلائق التى تدب على الأرض، من حيوان وطير وحشرات وهوام؛ وعنصر سماوى، هو هذه النفخة الروحية التى كرمه الله بها، وأوْدع فيها سر المعرفة التى امتاز بها الإنسان، وصار قادرًا على أن يدرك ما لا يدرك غيره من الخلائق التى تشاركه الحياة فى الأرض. وهو ما يشير إليه قوله سبحانه: ﴿ثم سوَّاه ونفَخ فيه من رُوحِه وجَعَل لكُم السَّمع والأبْصار والأفئدة﴾.

وقوله جل شأنه: ﴿وعلَّم آدمَ الأسماءَ كلَّها..﴾.

العنصر الأرضى وطبيعته

فبمقتضى العنصر الأرضى فى الإنسان رُكِّبت فيه الغرائز التى يحتاج إليها الجسم فى نموه وسلامته وصلاحيته للحياة. وهى غرائز يشترك الإنسان والحيوان فى كثير منها: فكلاهما جسم يتركب من عظم ولحم ودماء وعروق وأعصاب وغير ذلك؛ وكلاهما يحتاج إلى الغذاء الذى يقيم حياته، وإلى القوة التى يقى بها نفسه، وإلى التناسل الذى يحفظ به نوعه؛ وكلاهما يندفع بحكم غرائزه إلى السعى فى سبيل قوته، وإلى القتال فى سبيل حياته، وإلى التزاوج فى سبيل نوعه. وتحت تأثير هذه الغريزة

ينشأ ما يكون فى الإنسان والحيوان من حرص وبطش وشهوة، وما يترتب على كل ذلك من مظاهر الطمع والظلم، والشح والأنانية، والاندفاع مع الشهوة، والميل مع الهوى.

العنصر الروحى وطبيعته

فالإنسان من هذه الناحية المادية يستوى مع الحيوان فى الاندفاع الغريزى نحو الحياة. ولكن العنصر الروحى فيه يرفعه عن مستوى الحيوان، ويجعله بحيث يستطيع أن يتحكم فى غرائزه ويُهيمن عليها، وبحيث يملكها ويستخدمها على بصيرة وهدى، فى كل ما يقيم حياته على الأساس الذى يليق به كإنسان. فهو لا يندفع مع الغريزة اندفاعًا أعمى كما يندفع الحيوان، بل يستخدم كل ما وهبه الله من القوى العاقلة فى الهَيْمَنَة عليها والانتفاع بها، حتى تؤدى أغراضها فى غير ما ضرر به ولا بالمجتمع الذى يعيش فيه.

أسلحة الإنسان ضد عدوه الشيطان

وفى الإنسان من هذه القوى قوتان بارزتان هما «العقل والإرادة».. فالعقل هو القوة المدركة التى يستطيع الإنسان بها أن يدرك ويَعقِل، ويميز الخير من الشر والنافع من الضار. والإرادة هى القوة العاصمة التى يستطيع بها أن يَضْبِط حركاته

وسكناته، فلا يُقْدِم ولا يُحجم، ولا يفعل ولا يترك، ولا يتكلم ولا يَصمُت إلا على هَدْى العقل وإرشاده، لا على دفع الغريزة وانطلاقها.

فالإنسان بهاتين القوتين ليس عبدًا لغرائزه، بل هو مَلِكٌ عليها، يحكمها ولا تحكمه، ويوجهها ولا توجهه، وهذا فرقٌ ما بينه وبين الحيوان الأعجم؛ وبمقدار ما يحسن الإنسان من استخدام هاتين القوتين، يكون الفرق بينه وبين الحيوان.

هذا إلى قوة ثالثة كرم الله بها الإنسان وميزه على غيره: هى «الضمير».. وهى قوة لها اعتبارها بين قوى الإنسان، لأنها قوة خيِّرة، توجه دائمًا إلى الخير وتَنزَعُ عن الشر، وتهيمن على الإنسان فى كل أحواله، وتراقبه فى كل أفعاله، وتَنزع به إلى الندم إذا وقع فى الإثم، وتمعن فى إيلامه وتبكيته إذا تمادى فى الغَواية. وقلَّما خلا إنسانٌ من وَخْز الضَّمير مهما كان طبعه.

فهذه القوى الثلاث إنما هى حصون حصَّن الله بها الإنسان ضد عدوه الشيطان.. فالعقل بإدراكه يميز بين الخير والشر، والضمير بحسَاسِيته يدفع إلى الخير ويزع عن الشر، والإرادة بقوته تفعل أو تترك حسبما يوجهها العقل والضمير؛ وجميعها قوًى خيرة، لأنها أثر من آثار النفخة الروحية التى كرم الله بها الإنسان. ولا شك أنها أسلحة قوية يستطيع الإنسان بها أن

يتحكم فى غرائزه، ويرسم لها النهج الذى تسير عليه، حتى تؤدى وظائفها على خير وجه؛ كما أنها أجنحة قوية يستطيع بها أن يحلق فى جو السماء.. ولا نقصد بالسماء تلك الكواكب والنجوم، ولا ذلك اللون الأزرق الذى يعلو رءوسنا؛ إنما نقصد بالسماء كل أفق من آفاق السمو إلى المثل الأعلى، وكل معنى كريم من معانى الخير، وكل خُلق عظيم يسبغ على الفرد والجماعة رَوْح السعادة، من الصدق والوفاء، والعدل والأمانة، والمحبة والإخلاص، والمروءة والشجاعة، والتضحية والإيثار، والرحمة والحنان، والعفو والإحسان.. إلى غير ذلك من كل معنى فاضل تستريح إليه النفس، ويطمئن إليه الضمير.

تسخير الطبيعة للإنسان وإعدادها لمنفعته

هكذا بَرَأ الله الإنسان، فلم يجعل حياته مادية صرفة كحياة الحيوان، ولا روحية صرفة كحياة الملائكة؛ بل جعلها مزيجًا من المادة والروح، ليتلاءم وجوده من ناحيته المادية مع طبيعة الأرض التى يحيا عليها جسمه، ومن ناحيته الروحية مع طبيعة السماء التى تهفو إليها روحه. "فكان له إلى جانب بشريته ناحية روحية، تعود عليه بكل خصائص الحياة الكريمة، وتجعل له فى طبيعته مصدرًا لإلهام الخير وصفات الكمال"[1].

(١) آدم: للأستاذ البهى الخولى.

ولما كانت الخلافة ميدانها الأرض، فقد سخر الله للإنسان كل ما فيها، وكل ما يحيط بها من السموات، ومن الشمس والقمر، والكواكب والنجوم، والرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض؛ ليستخدم مواهبه فى اكتشاف أسرارها، واستخراج كنوزها، واستغلال خيراتها؛ ويعيش فيها سيدًا كريمًا، يقيم الحق والعدل فى أرجائها، وينشر الخير والسلام فى نواحيها، ويَقْمَع البغى والعدوان والظلم، ويؤدى عن الله فيها كل ما يريد لعباده من أمن وطمأنينة وسلام..

﴿الله الَّذِى خَلَقَ السَّمٰواتِ والأرْضَ وأنْزل مِنَ السَّمَاء ماءً فأخرج بِهِ من الثَّمراتِ رِزْقًا لكُمْ وسخَّر لَكُمُ الفُلْكَ لِتجْرىَ فى البحْر بأمْرِه وسخَّر لكُمُ الأنْهارَ * وسَخَّرَ لَكم الشَّمْسَ والقَمَر دائِبَيْن وسخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ والنَّهارَ وآتَاكمْ مِنْ كل ما سألْتُمُوهُ وَإِنْ تعُدُّوا نعْمة الله لا تُحصوها﴾[1].. ﴿ألَمْ ترَوْا أنَّ الله سَخَّر لكمْ مَا فى السَّمٰواتِ وما فى الأرْض وأسْبَغَ علَيْكمْ نِعمَهُ ظاهِرةً وباطِنةً﴾[2].

(١) سورة إبراهيم الآيات ٣٢ - ٣٤.

(٢) سورة لقمان الآية ٢٠.

مواهب الإنسان كافية لأداء مهمته على خير وجه

فهو عز وجل لم يترك الإنسان هَمَلا، ولم يهبط به إلى الأرض وهو أعزل، بل سلحه بكل قوى الخير، كما سُلِّح عدوُّه الشيطان بكل قوى الشر؛ "وبين له سنن الكائنات التى تحكمها، وتضبط خيرها وشرها، وتنظم نفعها وضرها، وبث فيه من أسرار الفهم والاستعداد الفطرى ما يكشف به تلك النواميس والسنن.. وجعل له من مواهبه قُوًى تناسب طبيعة العمل الأرضى البحت، وأخرى ذات روح إلهية لا تمتُّ إلى الأرض بصلة، ولا تستمد منطقها من عالم الأرض، وإنما تستمده من نور الله وفضله، سبحانه..

فليس فى مواهب المرء شىء يزيد مثقال ذرة أو ينقص عن مقتضيات الوفاء بحقوق الخلافة التى أعده الله لها وكرمه بها.. فإن هو أدى الذى عليه ونهض بحق ما ألقى إليه، فقد أنصف نفسه، وكان عند ما أراد الله له من كرامة؛ وإن أرادها مَلْهَاةً ومَأكَلةً وشهوة، وعطل بعض مواهبه دون بعض، فقد غير خلق الله فيه، وانسلخ مما أراد الله له من الكرامة والخير"[1]. وكان كما يقول سبحانه: ﴿وَاتْلُ عليْهِمْ نبَأَ الَّذِى آتيْناهُ آيَاتِنا فَانْسَلخ

(١) آدم، بشىء من التصرف.

مِنْها فأتْبعَهُ الشّيْطانُ فكَان مِن الغَاوينَ * ولوْ شِئْنَا لَرفعْناهُ بِها ولكِنّهُ أخْلَد إلَى الأرض واتَّبع هواهُ، فمَثلُهُ كمَثلِ الكلبِ إنْ تحمِلْ عليْهِ يلْهثْ أو تتْرُكْهُ يلْهث ذلك مثلُ القوْمِ الّذين كذّبُوا بآياتنا فاقْصُص القَصَصَ لَعلَّهمْ يتفكرُون * ساء مَثلاً القَوْمُ الّذِينَ كذّبُوا بآياتِنا وأنفُسَهُمْ كانُوا يظْلِمُون﴾[1].

الإنسان هو المسئول عن استخدام مواهبه

بكل هذه المواهب والقوى أمد الله الإنسان، وأعده ليكون أكمل الخلائق نشأة، وأرفعها قدرًا، وأهداها سبيلا. فما على الإنسان - وقد أُمِدّ بكل ذلك - إلا أن يلائم بين مواهبه ويُوَائم بين قواه، حتى يسير بها فى الطريق السوِىّ، وإلا أن يراعىَ سُنَنَ الله فى الكائنات، حتى يحقق بها الخير والنفع لنفسه ولمن حوله؛ فإن الله، تبارك وتعالى، إنما خلق الأشياء كلها لخير الإنسان ونفعه، ولكنه لم يخلق شيئًا بحيث يكون نفعًا محضًا ولا بحيث يكون ضررًا محضًا، بل أودعها جميعًا قابليّتها للنفع والضر، وجعل لكل شيء قدرًا يتحقق به نفعه ويتقى به ضرره.. فإذا استُعمِل الشيء فيما خلق من أجله، وبالقدر الذى حدد له كان خيرًا ونعمة، وإن أُسِيءَ استعماله أو تُجووِز به

(١) سورة الأعراف الآيات ١٧٥ - ١٧٧.

مقدارُه كان شرًا ونقمة "وأبدًا تكون الحياة من يد الله صحيحة سليمة، وإنما تفسدها يد الإنسان"[1].

وهكذا تجرى القاعدة مطَّرِدة كما بيَّنها القرآن الكريم : ﴿ما أصابكَ مِن حسنةٍ فَمِنَ الله وما أصَابك مِنْ سيِّئةٍ فَمِنْ نفسك﴾[2].. ﴿فَمَنِ اهْتَدَى فإنَّما يَهتدِى لِنفْسِهِ ومنْ ضَلَّ فإنَّما يضِلُّ عليْها﴾[3].

لا يستطيع الشيطان أن يخدع الإنسان إلا من طريق غرائزه

وليس من شك فى أن الإنسان إذا لاءم بين مواهبه وقواه، فسيطر بعقله وإرادته وضميره على غرائز الجسم، وراعى سنن الله فى استخدام الأشياء، فلن يكون للشيطان عليه من سلطان ولكن الشيطان كثيرًا ما يغرِّر به ويستهويه، وكثيرًا ما يستدرجه ويستزِلُّه حتى يفسد عليه ذَوْقه ورأيه وتقديره، ويزين له سوء عمله فيراه حسنًا.. وإنما يأتى الشيطان غريمه من طريق غرائزه، فلا يزال يثيرها ويستَفِزُّها ويُهَدْهِدُها حتى تكون أغلب عليه من عقله وضميره وإرادته، فيندفع معها اندفاع الحيوان. ذلك أن

(١) العقل المؤمن : للأستاذ عبد المنعم خلاف.

(٢) سورة النساء الآية ٧٩.

(٣) سورة يونس الآية ١٠٨.

غرائز الإنسان أضعف نواحيه وأوهاها، لأنها أرضية هابطة ترضى بالتافه من المتاع وبالدون من المنزلة، شأنها فى ذلك شأن الغرائز فى كل حيوان يدب على الأرض: "أما خصائصه الروحية فلا قِبَل للشيطان بها ولا سلطان له عليها، لأنها سرّ الله، عز وجل، فى ابن آدم، وحصنه الذى حصنه به وآواه إليه. ولا يزال المرء فى قوة ومَنَعة ما استعَزَّ بهذا السر واحتمى بهذا الحصن، فإذا غفل أو تهاون فى الركون إليه كان كمن ألق سلاحه واستسلم لعدوه، فكان أهون شىء على الشيطان أن يُغْويه، لأنه حينذاك لا يكون إلا فى حماية غرائزه، وهى أضعف نواحيه تماسكًا وأكثرها تهالكًا وانهيارًا"[1].

وقديمًا أتى الشيطانُ آدمَ وحواء من قبل الغريزة، فعمد إلى غريزة «حب التملك»، وإلى غريزة «حب البقاء»، فاستثارهما فى نفسيهما، وقال: ﴿ما نَهاكُما ربُّكما عنْ هٰذِهِ الشَّجرةِ إلا أن تكونا مَلَكَيْنِ[2] أو تكونا مِن الخالِدِينَ * وقاسمهما إنِّى لكُما لِمن النَّاصِحِينَ * فَدلاَّهُما بغرُورٍ فلما ذَاقا الشجرة بدت لهما سَوْءاتُهما وطَفِقا يَخْصِفانِ عليهما مِن وَرقِ الجنَّة وناداهما ربهما ألَم أنهكُما عنْ

(١) آدم، مع تصرف كثير فى العبارة.

(٢) ملكين (بفتح اللام) هى القراءة المشهورة، اى أن تكونا من الملائكة. وهناك قراءة اخرى بكسر اللام، من الملك وهو الحكم والسلطان، كقوله تعالى حكايته عن الشيطان ﴿قال: يا آدم، هل أدلك على شجرة الخلد ومُلك لا يبلى﴾.

تلْكما الشّجرة وأقُل لكُما إنّ الشّيْطان لكما عدُوّ مُبِينٌ * قالا ربنا ظَلَمْنَا أنفُسَنا وإن لم تغفِرْ لَنَا وترْحمنا لَنَكونَنَّ مِن الخاسِرين * قال اهْبطوا بعْضُكم لبعْض عَدُوٌّ، ولكمْ فى الأرْضِ مُسْتَقرٌّ ومتاعٌ إلى حين﴾[1].. وهكذا لم يستطع الشيطان أن يخدع آدم وحواء إلا من طريق الغرائز؛ فلما تنبهت فيهما خصائصهما الروحية ادركهما الندم والألم، فسارعا بالتوبة والرجوع إلى الله، عز وجل.

الله، عز وجل، تعهد الإنسان بالتربية فوق ما وهبه من القوى الخيرة

ولقد كانت هذه الخصائص كافية وحدها لعصمة الإنسان من غَوَاية الشيطان، لو أنه اعتصم بها واعتمد عليها فى مقاومة عدوه؛ ولكن الشيطان محتال خبيث، «يجرى من ابن آدم مجرى الدم»، ويتسرب إليه من كل مدخل خفى، حتى يلبِّس عليه أمره، ويعمِّى عليه وجه الصواب، فلا يرى الحق حقًّا ولا الباطل باطلا. والله، عز وجل، يريد للإنسان أن يكون أهلا لما خصه به من الكرامة، ويريد له ألا يضل فى متاهات البهيمية الحمقاء بعد ما ميزه بكل تلك الخصائص، ويريد له أن يؤدى حق الخلافة التى هيأه لها، وأعده لاحتمال تبعاتها؛ وهى

(١) سورة الأعراف الآيات ٢٠ ـ ٢٤.

أمر ليس بالهين، لأنها خلافة عن الله الذى يقول الحق وهو يهدى السبيل.. والله يريد لخليفته أن يتخلّق بأخلاقه، وأن يتبين الحق واضحا فى كل شىء حتى لا يُزِلّه الشيطان عنه.

من أجل ذلك تعهده، عز وجل بالتربية منذ كان، كما يتعهد الوالد ولده العزيز عليه، حتى ينشئه على أحسن ما يريد له من طباع الخير وكريم الخصال؛ ﴿يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ويتوبَ عليكم، والله عليمٌ حكيمٌ * والله يُرِيدُ أنْ يتوبَ عليكُم ويريدُ الَّذِين يتبعُون الشَّهواتِ أنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عظِيما * يُرِيدُ الله أنْ يخفف عنكُمْ وخُلِق الإنْسانُ ضَعِيفًا﴾[1].

نعم، فقد جعل سبحانه يوصى الإنسان منذ نشأته أن يحرص على ما حصّنه به من القوى، وعلى ما رفعه إليه من المنزلة، وظل فى كل مناسبة يحذره من الشيطان أن يغلبه على مواهبه أو يخدعه عن منزلته، كما يحذّر الوالد ولده من قرين السوء، ولم يَدَعْ فرصة تمرّ دون أن يكرر له النصيحة ويعيد عليه الوصية.

حذّر منه آدمَ أبا البشر وهو لا يزال فى الجنة، قال:

---

(١) سورة النساء الآيات ٢٦ -٢٨.

﴿ياآدمُ إنَّ هذا عَدُوٌّ لَكَ ولزوْجِك فَلا يُخرجنَّكما مِن الجنَّةِ فتشْقى * إنَّ لَكَ ألاَّ تجوعَ فِيها ولا تَعْرَى * وأنَّكَ لا تظْمأُ فِيها ولا تَضْحَى﴾[1].. وحذره منه بعد أن هبط به إلى الأرض: ﴿قال: اهبِطَا مِنها جميعًا بعْضُكم لِبعْض عدُوّ فإمَّا يأتِينَّكُمْ مِنِّى هُدًى * فمن اتَّبع هُداىَ فلا يَضِلُّ ولا يشْقى * ومنْ أعْرض عَنْ ذِكرِى فإنَّ لهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا ونحشُرُه يوْم القِيامة أعْمى﴾[2].. وحذر منه بنى آدم، ذَكَّرهم بما كان من خداعه لأبَـوَيْهم حتى أخرجهما مما كانا فيه، فقال عز وجل: ﴿يا بَنِى آدم لا يفْتِنَنَّكُم الشَّيطَانُ كَما أخْرج أبَوَيْكم منَ الجنَّةِ﴾[3].. ﴿إنَّ الشَّيطانَ لَكُمْ عدوٌّ فاتَّخِذُوهُ عدُوًّا إنما يدْعُو حِزْبَهُ لِيكُونُوا مِنْ أصحابِ السعِير﴾[4].

وأرسل إليه الرسل ليعلموه كيف يكون إنسانًا كاملا

ولم يزل سبحانه يتعهد بنى آدم بالتحذير من غواية الشيطان، ويتخولهم بالنصح والإرشاد من حين إلى حين،

(١) سورة طه الآيات ١١٧ ـ ١١٩.
(٢) سورة طه آيتا ١٢٣، ١٢٤.
(٣) سورة الأعراف الآيات ٢٧.
(٤) سورة فاطر الآية ٦.

ويرسل إليهم رسله وأنبياءه، أمَّةً بعد أمة وجيلا بعد جيل، ومعهم الكتب والشرائع، ليبينوا لهم طريق الحق ويهدوهم سواء السبيل، وليضربوا لهم المثل بسلوكهم على أن الإنسان يستطيع بما وهبه الله من القوى أن يغالب الشيطان، وأن يقيم خلافة الله فى الأرض على خير وجه، وأن يحقق فيها كل ما يريد الله من معانى الحق.

فلم تكن مهمة الرسل والأنبياء مقصورة على تبليغ شرائع الله، بل كانت مهمتهم كذلك أن يكونوا أمثلة عملية فى تنفيذها وتطبيقها على أنفسهم، وأن يكونوا قدوة للناس فى حشد القوى الإنسانية لإقامة الحق، وفى مجاهدة الشيطان أن ينحدر بإنسانيتهم إلى درك الحيوانية الهابط. ومن أجل ذلك جعل الله الرسل والأنبياء بشرًا لا ملائكة، فيهم من الغرائز والمواهب ما فى سائر الناس، ولكنهم كانوا حكماء فى استخدامها، فلم يقتلوا غرائزهم ولم يُميتوا شهواتهم، بل حكَّموا فيها عقولهم وضمائرهم، فضبطوها وسيطروا عليها، وساروا بها على وَفْق ما أراد الله منها، ونهجوا بها المنهج الذى بلغ بهم غاية الكمال الروحى، كما بلغ بهم غاية الكمال الجسمانى، فوضعوا أنفسهم بذلك فى المنزلة الكريمة، وكانوا بما أُوتوا من الحكمة خير النماذج للإنسانية الكاملة، ﴿ومَن يُوتَ الحِكْمَةَ فقدْ أُوتِي خيرًا كثيرًا ومَا

يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الأَلْبَابِ﴾[1].

وإذا كان "المثل الأعلى - كما يقولون - هو جماع المحاسن والكمالات التى تكون عادة فى مختلف الأفراد، مجردة من شوائب النقص، بحيث يتكون منها مثال كامل للجنس"[2] .. فقد كان الرسل والأنبياء مُثلا عليا للجنس البشرى، ونماذج كاملة، فى كل زمان ومكان أرسلوا فيه؛ وكانت مهمتهم أن يعلموا الناس - بأقوالهم وأفعالهم - كيف يستفيدون بما وهبهم الله من القوى فى إسعاد الخليقة، وكيف يغالبون قوى الشر التى تريد أن تفسد الحياة فى الأرض.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾[3] .. ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[4].

كان الأنبياء مثلا عليا للناس فى كل جيل

"وقد كان كل نبى من أنبياء الله مثلا أعلى، وكان قدوة حسنة للذين أُرسل إليهم، وكان يمكن أن يكون قدوة لمن جاء

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٦٩.

(٢) المثل الأعلى للأنبياء.

(٣) سورة الحديد الآية ٢٥.

(٤) سورة النساء الآية ١٦٥.

بعده لو عُرف تاريخ حياته على الوجه الأكمل، وأتيحت له كافة الفرص لإظهار الفضائل التى كان يتحلى بها، ولكن أصحاب السابقين من الأنبياء لم يسجِّلوا إلا القليل من أقوالهم، ولم تُتح لبعضهم الفرصُ الكافية لإظهار فضائلهم وأخلاقهم وأفعالهم؛ كما أن الزمان ذهب بآثار الكثير منهم، فلم تبق لأحد منهم صورة كاملة من سجل حياته، ولا شخصية تاريخية واضحة المعالم يمكن الاقتداء بها والسير على هداها..

كان محمد هو الشخصية الواضحة فى تاريخ الرسل والأنبياء

"أما محمد، صلى الله عليه وسلم، فهو الشخصية التاريخية الوحيدة التى وَضحَتْ كل معالمها، والتى سجَّل معاصروها كل أقوالها وأفعالها، فلم يتركوا منها صغيرة ولا كبيرة إلا أحصَوْها.. فهو النبى الوحيد الذى يمكن أن يسمَّى شخصية تاريخية بكل ما تحمل هذه الكلمة من معان، إذ أن سيرته معروفة منذ نعومة أظفاره إلى أن اختاره الله لجواره، وسِجِلُّ حياته كامل غير منقوص، وسُنَّته القولية والفعلية يُتمِّم بعضها بعضًا؛ وكأن كل مطلب من مطالب الحياة الإنسانية قد قُدِّر له وعُمِل حسابه، فكل ما يَعْرض للإنسان مما دَق أو جَلَّ يتجلى فى مرآة حياته..

وهو النبي الوحيد الذى مارس بالفعل كل المبادئ التى كان يلقنها للناس، ولن تجد فى القرآن حُكْماً أو أمرًا لم يعمل به النبى محمد ﷺ.

تقلب فى كل أطوار الحياة وكان فيها مثلا أعلى للإنسان الكامل

"وإذا كان القرآن الكريم يفصّل لنا الأخلاق على اختلاف أنواعها، فإن حياة النبى محمد ﷺ تصورها لنا بألوانها الحقيقية. وقد تقلب صلى الله عليه وسلم ـ من لَدُنْ كان يتيمًا إلى أن صار مَلِكًا[1] ـ فى جميع مراحل الحياة، فمارس صروفها ووفى بحقوق المراتب كلها، وبذلك صار المثل الأعلى للقدوة الكاملة.. فقد كان طفلا وشابًا وشيخًا، ووالدًا وأخًا وزوجًا، وجارًا ورفيقًا وصاحبًا. وجنديًا وقائدًا وفاتحًا، ومهاجرًا ومضطهَدًا ومطارَدًا، وتاجرًا وملكًا[1] وقاضيًا، ورجلا فى السراء والضراء.. وكان فى كل هذه المراتب على اختلافها هو هو لم يتغير من البداية إلى النهاية وكان مثال «الإنسان الكامل» ـ أو الجنتلمان كما يقول الإنجليز ـ ثابتًا على العهد لم يتغير طبعه ولا خُلقه، ولا اختلفت

(١) لم يكن رسول الله ﷺ «ملكًا» بالمعنى المتعارف من كلمة «ملك»، وإنما المقصود أنه صلى الله عليه وسلم، بلغ من سعة المُلْك وقوة السلطان ما يبلغه الملوك.

معاملته للناس، ولا تغير أسلوب معيشته. فإذا كان الرخاء قد أظهر منه السخاء والعفو والشهامة والمروءة، فإن الشدة قد أظهرت منه الصبر على النائبات، والثبات عند الملمات، والثقة فى خالق الأرض والسموات»[1].

وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿لقدْ كَانَ لَكُم فى رَسُول الله أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَنْ كانَ يَرجُو الله واليَومَ الآخِرَ وذَكَر الله كثيرًا﴾[2].

---

(١) المثل الأعلى للأنبياء، بشيء من التصرف فى العبارة وفى الترتيب.

(٢) سورة الأحزاب الآية ٢١.